

ولا معاهدة حتى ان المجرم العثماني المحكوم بخمس عشرة سنة كان يفر الى بلاد النمسا وبعد فوات الزمن يعود فرحاً غزيراً . اما المجرم النمساوي فكان يعاديجرد وصوله الى بلاد الدولة العثمانية . وما سبب هذه المسامحة والغفلة السياسية الا الخوف من تكبير جو الزفاهية على زعمهم كآفة من الممكن اجتماع الشرف والتغافل السيامي !

نابلس حني عبد الهادي

الجنسية

تأليف ماكس نوردو العالم الاسرائيلي الشهير نقلها الى العربية . م ع ج
كلمة للمعرب

كل مطلع على مجرى الافكار العصرية في الغرب يرى مسألة الجنسيات او القوميات الشغل الشاغل لكبار الساسة واعظم الكتيبة وفحول العلماء ويكفي المرء ان يتصفح بعض الجرائد والمجلات الاوربية ليرى فيها ذكراً لهذه المعضلة الكبرى ووسائل كثيرة لحلها . وقد لقب الكتاب والمؤلفون عصرنا هذا « بعصر الجنسيات » لكثرة ما حدث ويحدث في ايامنا هذه من الجدل والمناقشة بشأنها حتى تعدت الى المشاكل والمشاحنات وكادت تجر الى الحروب . فهي اذن مشكلة اليوم وكارثة الغد . لذلك رأيت من اللازم اطلاق بني قومي على مجمل ما وصلت اليه الآراء بخصوصها فلم اجد بحثاً اذق واتم من رسالة وضعها بالالمانية العالم الاجتماعي الشهير « ماكس نوردو » وصف بها هذه المسألة في جميع ادوارها وابدى من آرائه فيها ما هو جدير بالاهتمام فبادرت الى نقلها للعربية عليها تقييدنا ولو بعض الافادة في احوالنا الحاضرة .

وما كس نوردو هو احد علماء العصر المشار اليهم بالبيان ، امرائيلي الاصل الماني المنشأ اشتهر بمؤلفاته العديدة ورسائله الجمة التي امتاز فيها بالجد والدقة في البحث وبعد النظر والصراحة . منها كتابه « معنى التاريخ » الذي احدث ضجة كبرى عند ظهوره وقد انخى فيه على الحقائق التاريخية والمؤرخين ! (والسقوط البشري) وهو مجموع ابحاث فلسفية اجتماعية عصرية مثل : (الفلاسفة الروحية) و (مذهب الانانيين) و (آخر القرن) و (القرن العشرين) ومنها كتابه المسمى (اكاذيب مدقنا المافن هليها) و (منافضات الاجتماع) و (منافضات علم النفس) ومن امهات كتبه العلمية (روح

ما هو أساس الجنسية ، وما هي علامتها الفارقة ؟ لقد كثرت البحوث في هذه المسألة وأختلفت فيها الآراء . فقال بعضهم بالجنس بعني الاصل الفطري . والخطأ في هذا القول محسوس بحيث يوجب الانفة من الرد عليه . انا لا أعتقد بوجود الجنس البشري وإنما الشعوب المختلفة أنواع ثانوية لجنسنا ، والاختلافات الشكلية واللونية لم تنشأ عن تغير الجنس الواحد بسبب تأثيرات الاقليم بل منشأوها الحقيقي تعدد الجنس ؛ يظهر لي ان الشيب بين الأبيض والحشي أو بين أليابو ^(١) والهندي ليس أعظم من النسب بين الفيل الإفريقي والفيل الهندي أو بين الثور وبين الجاموس الأمريكي . ولكننا قلنا نجد في جنس واحد كالأبيض مثلاً من الاختلافات الماهية ما يسمع لنا بوضع ميزة فارقة وحدود بين أشكال الجنسيات المنزعة . يوجد في كل شعب بعض أفراد ذوو قامات كبيرة او صغيرة وشعر زاهية أو فاتمة وعيون زرقاء او سوداء . وهامات مستطيلة أو عريضة وامرجة باردة او حادة ويتنازى بعض هذه الصفات متغلباً في شعب وغير متغلب في شعب آخر لان نجد في الصفات الطبيعية او العقلية أقل معنى سيفي تمييز الفرد ونسبة له . مع محدود مثلما نجد في البشرة السوداء وشكل الوجه وتعدد الشعر من تمييز الحشي ونسبته لجنس محدود

ان جميع التجارب التي جرت لايجاد (شكل متوسط) خاص لكل شعب لم تجد اقل فائدة علمية . ولقد تكون قراءة اوصاف هفا « الشكل المتوسط » لذيذة تهيج فينا عاطفة « حب الذات » لكننا في الواقع لم نخرج من حد التخيل . على ان خطوط ذلك الشكل لو كانت غير خيالية ليست سوى رسوم ظاهرية في المرء - لاصلة بينها وبين حياته الداخلية - طبعت على بشرته ويمكن ان تمحي عنها متى تقدم في العمر ، انها لا ترسم عليه اذا نقل وهو طفل الى بيئة غير التي ولد فيها وعرض لتأثيرات جذبية غريبة . ان (شاميسو ^(٢)) مؤلف كتاب « بطرس شميل » أو « الانسان الذي اضاع ظله » كان غلاماً متأدباً ايام لم يكن يعرف من الالمانية حرفاً فاصبح بعد ذلك شاعراً المانياً يضاهي اكبر شعراء الالمان الذين يزعمون ان دم الجرمان القدماء (ضيوف

(١) (أليابو) أحباش اوسيانيون يقطنون غينيا الجديدة وبريطانيا الجديدة وارخبيل سليمان وجزائر هبريد من قارة اوستراليا .

(٢) ادب وعالم طبيعى من أصل افرنسي نشأ في المانيا ونبت فيها حتى اصبح يعد من غرول ادبائها وعلمائها العظام (١٨٣٨ - ١٧٨١)

تأسيث^(١)) يجري سيفه هروقههم والمورخ (ميشليه (٢)) ولا اعني ذلك الا فرنسي المتحمس بل الفيلسوف (الالماني) بما ظهر عليه من الصفات العقلية التي عدها « علماء الانسان » من مميزات الجرمان : كالحصافة ، والجد الادبي ، حتى التعقيد في الانشاء ! والمفكر « جول دوبوك » العريق في افرنيتته — كان أبواه يفتخران بدمهما الا فرنسي الخالص — وهو الذي اشتهر بكتاباتة بالطريقة « الأيدبالستيه »^(٣) « الالمانية خاصة » و « دو بواريموند »^(٤) « الا فرنسي الذي اصبح المثل الاعلى للعالم الالماني ، اما « تيودور كونان » فانه لم يكن المانيا فقط بل « المانيا شماليا » بتأملاته الطبيعية وتحليله للنفوس ... الخ وهكذا قل عن اي شعب اوربي شئت فانك تجد فيه مثل هذه الحوادث شيئا كثيراً

من ذا الذي قرأ مؤلفات « لوثر اولباخ » و « اوجين موالر » — مؤلف رواية *LA MOINETTE* — و « شولر » و « ديتز » ولا يعتقد انهم افرنسيون الخاح ؟ بل من ذا الذي لا يرى في مؤلفات « هرتزنوخ » و « بيكر » صفات شعراء الاسبان ؟ او من يرى في « داني »^(٥) شيئا غير انكليزي حاشا — قد يكفي ان يعيش المرء (١) (تأسيث) مورخ لاتيني عظيم ولد بين عام (٥٥ و ١٢٠) قبل المسيح وألف كتباً قيصة عن تاريخ الجرمان ووقائعهم واخلاقهم . وتمتاز مؤلفاته بسلامة الذوق وفصاحة العبارة ودقة النظر

(٢) مورخ افرنسي كبير ولد في باريز وكان يعلم التاريخ في كليتها الكبرى وبالنظر لحريته منع من التدريس مرتين وقد بث كتاباه « تاريخ فرنسا » و « تاريخ الثورة » روح الحياة الوطنية في فرنسا وبين (١٨٧٤ - ١٢٩٨)

(٣) (الأيدبالسم) مذهب فلسفي ادبي ينكر حقائق الاشياء مجردة ويعتقد انها ليست سوى صور فكرية لا تنفصل عن نفس المفكر .

(٤) اديب فرنسي ولد في (نروا) وله مؤلفات جمّة في القصص والادب

(٥) داني شاعر ايطالي شهير ولد في (فلورنسا) وولي اعمالاً سياسية خطيرة ثم نفي فسكن باريز مدة وعاد الى (رافين) ليوت فيها (١٣٢١ - ١٢٦٥) نظم قصائد عديدة بث فيها غرامه المبرح في (بياتريس) ابنة (فولكو) ولاجلها ألف كتابه المسمى « بالحياة الجديدة » لكنه اشتهر خاصة بروايته المشهورة « الكوميديا الالهية » وقد نال بسببها لقب ابي الشعر الايطالي .

في امة ليقبلس عاداتها واخلاقها الحميدة والذميمة دون ان يكون بينه وبينها صلة رحم وان ظهر لنا ما يناقض هذه الحقيقة في شخص بعض الكتاب وارباب الفنون فيجب علينا اذن ان نبحث عما اذا كانوا أو كنا نحن متأثرين باحد مصدرين للخطأ يصعب اجتنابهما.

من البديهي ان نميل الى البحث في « شامسو » مثلاً عن صفات نلصقها بالافرنسيين ظلماً فنجد هانيه والسبب في ذلك سرعة تغير صور الحوادث في اذهاننا فتتطور طبقاً لما عاين في أفكارنا من الصور المغلطة ، ومن جهة أخرى نرى ان من المؤلف عند الشاعر او صاحب الفن العائش في انكسار ان يبقى في رأسه فكرة وطن أجداده فيخيل اليه انه من الواجب عليه ان يكون ذا أطوار تذكره بذلك الوطن وبسبب الاستمراء الناتج عن تلك الفكرة نراه لا يفتأ يغير في طباعه — من غير ان يشعر — وبألف أطواراً اخرى صناعية حتى يكون مماثلاً لمواطنيه الأصليين ، والمضحك في هذا الأمر ان لا يظهر في صفات بني وطنه الحقيقية بل بتلبس الصفات التي ينسبها الانكليز عادة لمواطنيه خطأ .

فالجنس اذن لا يمنح المرء حقاً في جنسية محدودة وبها ان أبناء الموهك يوت الذين هاجروا الى مقاطعة (براديرج) أصبحوا اليوم من أحسن الالمان وابناء مستعمرية « امستردام الجديدة » من الهولانديين هم الآن أميركيون شماليون لا يختلفون عن الأميركان الأصليين في شيء . فالحروب وكثرة المهاجرة مع حركة الافراد وثقلهم جمعت بين العناصر المختلفة في بادي الأمر ومزجتها مزجاً غير قابل للانحلال ، وجميع شرائع الامم الممدنة تظهر عدم الاهتمام بصلة الدم بما تبدي من ضروب التسهيل في قبول الاجانب في تابعيتها وتجنيدهم بحسبيتها بحيث يكون لهم من الحقوق والواجبات ما لرعاياها الأصليين

ولما كان أساس الجنسية المبني على « الاتروبولوجيا » (علم الانسان) غير كاف ، حاولوا ان يفتخروا لها أساساً تاريخياً قانونياً فقالوا : ان ما يكون الامة هو ماض عام ومستقبل عام هو الحياة العامة في ظل حكومة واحدة وشرائع واحدة ، هو ذكرى أفراس وأتراس تقاسمها افراد الامة سواء . هذه القضية على ما بها من الزخرف الخطابي ان هي الا سفسطة يرفضها العقل مؤيداً بالحوادث . بل من شئت من الروثانيين — اهل غاليشيا — عما اذا كان يشعر بانه بولوفي بالرغم من مشاطرة الروثانيين البولونيين ، منذ

نيف والف عام في حياتهم وشرائعهم وحكومتهم السياسية . واسأل اي (فيني ^(١)) او (سيوي) — كذا يلقبون انفسهم — هل يعتبر نفسه اسو جياً فلندياً مع انه يساكنه ويعيش معه تحت ظل حكومة واحدة منذ أكثر من الف عام ايضاً . نعم ان اتحادهما في الشرائع وفي الحكومة ولا سيما في العادات والاخلاق مما يستلزم تألفهما وينبئ فيهما عاطفة التضامن والتكافل . وتلك عكس ما يجري مع اليهود فانهم قلما تهبرهم الامم التي يعيشون في حضنها جزءاً (٢) منها . وذلك بانهم لا يزالون متعلقين تعلقاً اهمى بعادات اجدادهم — كاستعمالهم الميقات ، وتعظيمهم ايام الاعياد والبطالة ، واحترامهم الشريعة الخاصة بالماكل واتخاذهم السكنى . . . الخ — التي تخالف كل المحافظة عادات مواطنيهم المسيحيين والتي من شأنها ان تلبي في هؤلاء عاطفة الاستقلال والافتراق عنهم . فمثل هذا الاتحاد قد لا يكفي لان يؤلف من شعوب شتى شعباً واحداً ذا جنسية واحدة

كلا ان هذا الاتمو به لا تلبث الحقيقة ان تبدده ، وما اندر ما يظهر منشأ الانسان الطبيعي مرسوماً على مجاه اذ القاعدة العامة تبركه ولن تقوى على اثباته . انه لا يشعر به في نفسه ، وكل ما قيل في حق (صوت الدم) ليس الا سفاسف يبيي عليها القصصيون خيالاتهم ، وليس للشرائع والادارات السياسية وحدها من القوة ما يكفي لتحديد الجنسية على ما لها من التأثير في تهذيب اخلاق المرء . وما يحدد الجنسية في الحقيقة الا اللغة . فيها وحدها يصبح الانسان عضواً في جسم الامة وهي وحدها تحوله الجنسية . فلهذا مثل حق التشثيل مكانة اللغة للفرد وحفظها في تكوين وجوده وفكره وشعوره ومظهره الانساني

بالغة بتكيف نظر الانسان حسب نظر الشعب الذي هذبهم ورقاه واودع فيه . وفي تركيبه ادق حركاته الفكرية وارق خصائص عالم تصوراته ، باللغة يصبح الانسان ابن الشعب ووارث مفكره وشعرائه وموذييه وقادته ، باللغة يحفظ المرم جناحه لادبيات الشعب وتاريخه بفضل ما يؤثران في جميع افراد ذلك الشعب فيجعلانهم سواء في الشهور والعمل . حقاً ان اللغة لهي الانسان نفسه . بها يدرك صفات الحوادث الكونية العامة ، وبها

(١) (الفينيون) قبائل لغظن شمال اوربا وآسيا ومنهم (الألبون) و (الأوستباك)

(٢) المقتبس : لذلك كان ما كس نوردو واضع اساس الصهيونية وهي ان يكون للاسرائيليين جامعة سياسية في فلسطين يؤسسون فيها مملكة مع الزمن تعيد مجد اسرائيل كما وردت البشارة بذلك في التوراة

يؤثر في العالم الخارجي . الا وان فرداً واحداً من بين ملايين الخلق يفكر بذاته ويلبس تأثيرات الخواس عليه صوراً شخصية وسائر الملايين من الخلق لتبع ذلك الفرد عن بعد او عن كسب ، في افكاره بما وصل اليهم منها بواسطة اللغة . كما ان فرداً واحداً يعمل ، ويثبت مدر كاته في الناس والوجود باعماله الآمرة ، بينما ملايين الخلق لتختصر اقوالها في اظهار ما وصلت اليه عقولها من الرقي . فاللغة اذن هي اقوى صلة تجمع بين الناس . واخوان شقيقتان لا ينفامان بلغة واحدة نلقاهما غريبين احدهما عن الآخر اكثر من شخصين غريبين الثقيا لأول وهلة فتبادلا التحية بلغة واحدة

قد رأينا ادنكلير وامير كيبي الشمال يتاجرون فيما بينهم لاختلاف المصالح ولكنهم سرعان ما يتحدون قلباً وقالباً امام غير الانكليز ويشعرون حينئذ بانهم ابناء أم واحدة هي (بريطانيا العظمى) ولقد اشتعلت نار الحرب واشتد معيها بين الهولنديين والفلمنكيين عام (١٨٣١) وهم اليوم على وشك عقد اتحاد اخائي كبير . ولما حارب البوير الانكليز او لما دافع البوير عن انفسهم من مطامع انكلترا السياسية كان قلب الهولنديين يخفق لهم المأ وفرحاً بينما كانت العلاقات بين هولاندة وحكومة الرأس (الكاب) قد انقطعت بشئنا منذ قرن تقريباً . فلم يمنع اختلاف الشرائع والعادات والاخلاق وذكر التاريخ من اشتراك بلجيكا وسويسرا الفرنساويين (لغة) في الدفاع عن فرنسا في حرب السبعين . وعلى الرغم من كره التروجيين الاحتلال الدائم كي الذي توصلوا الى التخلص منه اخيراً وبقاء شئ من ذلك الكره الى ايامنا هذه فقد رأينا التروجيين ايمان حرب (شلسويك - هولستين^(١)) يتسابقون بحماسة الى نصرته من لا تجمعهم بهم سوى رابطة صغيرة هي اللغة ، واعظم بها من رابطة .

...

ولقد اتى على اللغة حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً وذلك حين كان الشعب في درك الانحطاط لاوظيفة له غير السخرة وتأدية الضرائب بينما كان الامر والتهي في ايدي فئة قليلة من المتسلطين . وكان يرمئ رجل الشعب لاحاجة له باللغة . وما ذا تفيد اللغة ؟ الألبين وصحب اللغات او كتابة مزجات غليظة داخل مغارته^(٢) ؟ انه لم يكن يختلط بغير رفقاته في القرية وهو لا لم يكونوا يعرفون من اللغة اكثر منه .

(١) مقاطعتان دانيمركيتان اغارت عليهما بروسيا واحقتها بها عام ١٨٦٤

(٢) لم نفهم غرض المؤلف من هذه الاشارة .

اما السياحة والاغتراب او رؤية الغرباء في بلده فأمر غير معهود . وما كانت حكومة ذلك الوقت تستعمل غير الوسط تكلمهم به دون ان تعتمد الى النحو او مفاهيم اللغة . وكانت الديار اذ ذلك بلقما خالية من المدارس . وكان رجل الشعب المطالب بحق من حقوقه في المحاكم لا يستطيع الانصاح عما يكتنه صدره امام القاضي فلا يرى ثمة وسيلة غير الاستعانة بمحام يدافع عنه وما كان مأمورا والادارة ليستقوا الى مبادلة الشعب الحديث او مطارحته الشؤون وكان الشعب في الكنائس يطفح قلبه بالعواطف التعبدية فلا يقدر على الانصاح عنها وذلك لان الكشلكة كانت تمثل له الاله كسيد كبير اجنبي لا يعبد الا بلغة اجنبية — اللاتينية — بواسطة قساوسة علماء في تلك اللغة فلم يكن من حاجة للفرد ولا في وسعه ان يخرج من مأزق الحالة الوراثية التي نشأ عليها الى محيط افصح مستعينا بالكلام . وعندما ظهر شيء من الاستقلال في بعض المدن والدساكر اخذ السكان يجتمعون فيتجادلون ويتناقشون في امورهم وهناك كان لغة دور مهم اذ تفرق الناس شعوبا وقبائل بحسب اختلاف لغاتهم متنازعين فيما بينهم على السيادة والامارة . اما طبقة الاشراف فما كانت لهمم باللغة لاسباب منها ان حقوقهم في السلطة كانت مضمونة لهم منذ ميلادهم . فكانوا سادة امراء دون ان يفتح الواحد منهم فمه او يحرق قلمه . اعتبر ما حصل في ايامنا في انكلترا التي لا تغلو ثقايد حكومتها الحالية من بعض عادات القرون الوسطى ، اذ ان هولانديا من سلالة (ابقومي) — اللورد راي — اصبح نجاة سيدا من اشراف انكلترا وعضوا في مجلس اللوردات وذلك لخلو عائلته من وارث انكليزي ذكر يرث هذا اللقب العظيم يعني انه اصبح ذا حق في الحكم التشرعي في المملكة البريطانية دون ان يكون وطنيا انكليزيا وان يعرف كلمة واحدة من اللغة الانكليزية !!! ولما كانت بعض الاحوال العامة تضطر الشريف الى الظهور كان هذا السيد يتكلم باللاتينية او ينسب عنه امين سره في استعمالها .

في مثل هاتيك الاحوال كانت الجنسيات محدودة لان اللغة نفسها كانت محدودة اما في ايامنا هذه فقد سارت الامم شوطا بعيدا حتى في روسيا والعثمانية فالفرد اليوم حر وله الحق — مهما كانت منزلته — ان يرقى وبعاد المنزل التي شامت الافرار ان يوله فيها . اصبح العدل شفويا والادارة مفتحة الابواب لكل الناس تقبلهم في احضانها وتساهم بتعليماتها ، وكذا المدرسة والجيش . وقد سهلت البرتستانتية على الشعب عبادة ربه بلغته واستماع المواعظ والتعاليم الدينية بها . فصارت مزاولة الكلام لازمة

لكل حرفة ومهنة حتى اضطر اعظم رجال الدولة بل الملوك انفسهم الى تعود سهولة
العلق وارتيال الخطب . وهكذا اكتسبت اللغة مكانة عظيمة حتى ان كل عقبة توضع
في سبيل استعمالها او كل ضغط يسهل استعمال غيرها من اللغات الاجنبية يشعر به الفرد
كعار الخلق به وامتنان بشرفه .

...

ان من يعيش بسكنة بين مواطنيه في دولة يرتبط جميع اعضائها بجنسية واحدة
والذي لم يقع له ان يخجل من لغته او انكرها لا يقدر قيمة تلك الجنسية . مثله كمثل الذي
لم يشعر بمرض هل تكفي قرعة الاوصاف والاعراض او قص انواع الآلام والعذاب
عليه لكي يشعر بها ويقدر مكانتها ؟ . . . اما من عاش في بلد مضطهدة فيه جنسيته
ولغته غير لغة الحكومة و يرى نفسه مضطراً لتعلم لغة اجنبية لاستعمالها الاكاجبي -
هذا اذا لم يشأ ان يلبذ شخصيته او رفض الوظائف المالية والتمتع بحقوقه المدنية سيف
تلك الدولة ليعيش كاحد عبيد القرون الوسطى او كاحد المجرمين المحكوم عليهم بالخروج
من حقوقهم المدنية والانسانية . . . هذا الذي يضطر للمخوع وتنفيذ الرأس امام
جنسية اجنبية ، يقدر مزايا الجنسية الخاصة ويشعر بها ! ليس الحرمان من حقوق
الشرف التي تحكم بها بعض القوانين بشي* مذكور في جانب الحرمان من استعمال اللغة !
ليس تصفيد الأيدي والأرجل بالاغلال بأشد من عقل اللسان ! هناك يحاول المرء
ان يخرج من سجن نفسه فلا يستطيع ! ويتأكد ان في امكانه ان يكون بليغاً فيبرسه
نفسه مضطراً الى ان يرطن بلسان اعجمي . بل يرى نفسه محروماً من اقوى الوسائل
الفعالة في التأثير في الغير فيشعر بانه مغلوج مقطوع الاوصال !

ان المرء الذي يعرف نفسه لا يرضى لها مثل تلك الاحوال . ومن ذا الذي يقوى
على انكار ذاتيته طائعا مختاراً ؟ بل من ذا الذي يرضى بان يعيش عبثة خالية من افضل
المزايا واعظمها : وهي استطاعة ابداء مظاهري رقيه النفساني التعبير والفكر ؟ نحن نكفي
يقين بان الهندي الوثني المعتقد بطرح بنفسه تحت عجلات مراكبة (جاغرنات^(١))

(١) (جاغرنات) بلدة حصينة في خليج بنغالة واشهر المدن المقدسة في الهند
سكانها ٢٠٠٠٠ الف ويحج اليها كل عام نيف ومارون وثني يردون اليها من افاصي
الجهات الآسيوية وفي العيد الاكبر يطوف البراهمة بمراكبة عليها صنم معبودهم فيتسابق
المنهوسون من الهندو الى طرح انفسهم تحت عجلاتها ليقضوا شهدها

طمعاً في ان يحيا حياة اخرى انعم واسعد من الاولى ، نعلم علم يقين ان (الفقير ^(١))
 يأبى استخدام بعض اعضاءه . ويعيش سنين عديدة كخسف انسان او كأ انسان مذنب
 وذلك لانه يجد من نفسه دافعا ومن النعيم الموعود به مشجعاً ان هو قدم حياته لله قربانا
 ولكننا لا نتقدر ان نتصور اولئك الذين يولون لجنسيتهم الادبار ويرضون باستعمال لغة
 اجنبية يرطنون بها طول حياتهم بن استهزاء الآخرين بهم وجعلهم الدائم من انفسهم
 واما الذين يأتون بضحية مثل هذه جبناً او عجزاً او عن حماقة فعندي انهم يشحقون
 الشفقة الا الذين يبدون لغتهم اي — أمانيتهم — وذائقتهم المفكرة ويتسربون الى
 اهاب اجنبي طمعاً بنيل بعض المآرب فاولئك هم المذمومون المحقوتون بل هم أذل من
 (السكوبزي) الروسين Skoptzi الذين يخلصون انفسهم لاعتقاد ديني
 اما الاولون فيخلصون انفسهم عقلياً طمعاً بمال او بما يوازيه . . . حقاً اننا لانجد كلمة تقوم
 بوصف هذا الانحطاط الاخلاقي!

...

ومن حظ الانسانية وشرفها ان اولئك الانذال هم الاقلون . اذ الاكثرية تملك
 بلغتها وتذب عن جنسيتها كما تذب عن حياتها . ان للشعب المسلط ان يشرع قانوناً
 يجعل به لغته لغة الدول ويسقط لغة المغلوبين على امرهم حتى تصبح خليطاً غريباً للسوقة
 لا يدخل المدارس ولا الكنائس ولا المحاكم ولا المجالس . فان كانت هذه اللغة راقية
 او منتشرة في بلاد اخرى ، ذات ادبيات وحظ واف في التعبير عن مظاهر الفكر
 الانساني سواء في السياسة او في العلم فانها لن تخضع لهذا العار . اذ تصبح الجنسية
 المضطهدة عدوة الشعب المضطهد بعض كفه الذي يحاول ان يكها . وتصبح مستصرخة
 تريد التكلم الذي ياباه عليها غاصبها وبعد اليأس تحاول ان تهدم بنيانها سياسياً كان سمجها
 عوضاً عن ان يكون ملجأها .

قال احد هنريي الفرنسيين : لاوسيلة في الدنيا تقنع رجلاً تام العقل بان يسلم
 رأسه لقز بالمعلقة (الفيلوتين ^(٢)) ونحن نقول بأنه لا شريعة في الدنيا تقوى على اقناع
 او ارغام شعب راق يشعر بوجوده ان ينزل عن ائته . وعبقريته . والدولة المولفة من
 جنسيات شتى لابد ان تقع في مازعات وحروب داخلية لا تستأصل الا بوسائل

(١) الفقراء طائفة من متصوفي الهند لا عمل لهم الا النسل .

(٢) الفيلوتين آلة الاعداء عند الفرنسيين قديما

راديكالية اي اصلاحية مطلقة أهمها (اللامركزية) المطلقة باوسع معانيها . لكنها وبالأسف لم تخرج من نظرية معقولة نقيماً بعض الساسة ولا يمكن تطبيقها على مجرى الاحوال . ولتصور القاري الى اي درجة يجب ان تصل اللامركزية ، لكي ترضي جميع الجنسيات المختلفة في دولة واحدة ويلزمنا ان نعرض لكل فرد الحق بنقله الوطائف عامة في جميع جهات الوطن وان يشترك في الحقوق المسماة (بحقوق الانسان وحقوق الوطني) دون ان يضطر الى استعمال لغة غير لغة آباءه واجداده فيجب والحالة هذه ان تستعمل في المصالح الادارية = من مكتب البريد في القرية الى النظارة = والمداية = من قاضي الصلح الى محكمة التمييز = جميع اللغات المتكلم بها في تلك الدولة . وهكذا يجب استعمال جميع هذه اللغات في المجالس النيابية = سواء في ذلك القرى والاقضية والولايات = كما يجب ايضاً تأسيس مدارس ابتدائية وثانوية وعالية لكل شعب وبالاختصار ان لا يضطر احد لتعلم لغة غير لغته لنيل ما يناله مواطنوه الآخرون فهل يمكن القيام بكل هذه الواجبات ؟

اللهم ان هذا الامر مما يستلزم تقسيم الدول الى اجزاء صغيرة ليس بينها اقل رابطة محسوسة ، ان مساواة لغة كهذه بين شعوب مختلفة في ظل دولة واحدة ليست ممكنة الا بين اثنتين فقط ، متساويتين قوة كما هو الحال في بلجيكا لا حيث يوجد عشر او اثنا عشرة امة = كما هو الحال في دولة النمسا والمجر - مختلفات في اللغة وفي العدد وفي المعارف لاصلة بينها ، متداخلة بعضها في بعض اذ ترى في القرية الواحدة ثلاثة او اربعة أجناس ولغات وفي الولاية اكثر من ذلك . ولا بد لدولة كهذه من لغة رسمية والشعب الذي تكون لغته هي الرسمية يصبح وحده حاكم البلاد . وهكذا تعدم المساواة التامة وتمتن الشعوب الاخرى فتعيش عيشة منخطة . هناك ترى بين الافراد الوطني التام ونصف الوطني ذلك تطلق الشريعة لسانه وهذا تقضي عليه نفس الشريعة بالكم . ومن يذكر تلك الاسطورة الالمانية (خرافة الغرايب السبعة) التي جاء فيها ان ابنة منعت من التكلم مدة سبع سنوات وان شعباً كاملاً حرم من ابسط حقوق الانسانية واعلاها يجد ان هذه الخرافة اصبحت ادارة سياسية في احوال لاتطاق كالتى وصفناها .

...

يعتقد بعض الخياليين من رجال السياسة ان، سيأتي على الانسانية الممدنة يوم لا ترى

فيه من حاجة الى الاوضاع الدولية الكبرى اذ لا حرب ولا امور خارجية : هنالك
 يواف الناس جماعات كبرى أشبه بعائلات كبيرة او جمعيات محدودة يتمتع الفرد فيها
 بحرية ترقية نفسه ويتكفل جميع اعضائها بالمساعدة لادبية والمادية الضرورية لحياة الانسان
 ويكون كل جماعة مستقلين عن الآخرين الا في المشاريع النافعة واللازمة لجماعات
 متعددة والتي لا تشايع القيام بها مفردات فتنفق اذ ذاك تلك الجماعات انفاقاً وقتياً
 خاصاً بالغرض المطلوب . وحينئذ تلغى الجنسيات لان الجماعات المستقلة تكون صغيرة
 جداً ومولفة خاصة من أفراد يتفاعمون بلغة واحدة . وقبل ان اقنع بامكان تطبيق
 هذه النظرية في المستقبل فانا افضل نظرية اخرى وهي ان البشر ما داموا سائرين في
 طريق النشوء العضوي لا بد ان يستغنوا ذات يوم عن اللغة وعن الحركات الرمزية
 للاصباح عن مشاعرهم فنقوم مقامها حركة ذرات الرؤوس التي ستخاطب الارؤوس
 الاخرى مباشرة بنوع من الاشعاع او التثقل المستمر ! اني لاضع هذا النشوء الروحاني
 وذلك التفهق الدولي في مستو واحد من حيث جواز الوقوع ولئن سلمنا سهلاً بامكان
 حصول احد هذين الحليين فهل نسلم بان الزمن اللازم لذلك قريب كما يدعون ! كلا
 انه لا بعد مما يتوهمون . لا جرم ان الامم المضبوطة عليها ان تقتنع بهذا كما انها ان تسلم
 باستعمال لغة عامة . قد يمكن ان يستعمل بعض العلماء الراقيين في الانسانية جمعا لغة
 واحدة عامة لتبادل الافكار فيما بينهم . ولكن من الصعب التصديق بأن اقواما
 متفرقين يتحدون على تعلم هذه (اللغة المدرسية) لغة العلم ويخضعون لحكمها وسلطانها
 اذا اراد الرافون سيفامة ان يلقنوا الشبية اسرار العلم او يريدون على امر خطير
 او يدوا لم ماتوحيه ضمائرهم من تحليل او تحريم فلا يلجأون قط الى الالباس افكارهم
 ثوب تلك اللغة الاجنبية التي تحرف اوضاعها ، وتبر اشكالها ، وتضيق عليهم نطاق
 حريرتهم .

...

بقي امامنا بعد دحض مائقدم وسيلة واحدة من الوسائل الراديكالية الآتفة الذكر
 الا وهي استعمال الشدة : ان اعمال التذبذب والتجارب الناقصة والضغط الضعيف قلما
 تفيد شيئاً في هذا الباب . لاسباً اذا كان المقصود اغتصاب ملك اسامي قديم يحتوي
 على جزء جوهرى من الذاتية كاللغة فالنزاع لا أجل اللغة ليس الاشكلاً آخر لتنازع
 البقاء فيجب ان يعتبر مثله : اما ان نقتل عدوك او نقتل او تمهزم ! وننازع الجنسيات

ليس الا تكملة لحادث ظهر منذ قرون بل منذ الوف من السنين ثم سكنت ثائرتة مدة
فقام اليوم من رقدته ومشى مشية مربعة نحو الختام . واسائل ان يسأل كيف أختلطت
الجنسيات المختلفة وتدخلت بعضها في بعض ؟ وهناك الجواب : دخل شعب غاز بأبلاد
شعب آخر فلم يطرده منها بثنائاً بل بقيت ثنات من الشعب المغلوب بين الشعب الغالب ،
او ان الشعب الغالب كان اقل عدداً من المغلوب فلم يبق منه الا فئة قليلة . هنالك
يشد التنازع بعد ان كان ساكناً فيضطر الشعب الغالب لان يستجمع آخر قواه
ليدفع عنه الشعب المقهور او ان يعدمه اديباً بحرمانه من اقته بالقوة الوحشية اللهم الا اذا
نهض الشعب المازو فجأة مدافعاً عن نفسه فيطرد الغازين خارج بلاده او يضرطهم الى
نبذ جنسيتهم .

ولقد تأتت الحوادث على صورة أخرى كأن يفرح فريق من شعب عن ديارهم لانها
لا تكفي لعيشهم فيقطنون دياراً غيرها . فان كانت هذه الديار خالية في الماضي ثم
شاركهم في احتلالها مهاجرون من شوب اخرى فللمحتلين الاولين ان يعتبروا الجهاد في
سبيل لغتهم جزءاً من جهادهم في تهديد العقبات الطبيعية اذا ارادوا انشاء دولة تكون
لم ملجأ حصيناً ويجب عليهم حينئذ ان يدفعوا عن انفسهم خصومهم كما يفعلون
بالمستقعات والسيول والثلوج والتخدرات والحجر والوحوش الضارية والجوع والبرد
وان يعتبروا الهيئة الطيبة التي لم يظفروا بها في بلادهم والتي صادفوها في غير وطنهم
كثيرة لتلغبهم على جميع العقبات الطبيعية والبشرية بعد ان عرضوا في سبيلها حياتهم .
اما اذا كانت البلاد التي استوطنتها آهلة من قبل فيجب عليهم ان يعرفوا الشروط
التي بها نالوا الضيافة . فان كان من تلك الشروط ان ينبذوا جنسيتهم وكانوا قد
رضوا بذلك فضعفهم وجبنهم لا يستحقان الشفقة . ولضيفهم ان يرغمهم على التنازل
عن لغتهم وذاتيتهم لقاء الخبز الذي يجودون به عليهم . واذا كانوا قد احتلوا جزءاً من
بلاد اجنبية دون ان يؤثروا ثنائاً لهذا الاحتلال فيقتضي ان يكون عندهم الآن
من الارادة والقوة ما يمكنهم مما كان يجب عليهم فعله في بدء احتلالهم لو قوبلوا بالعداء
فاما ان يبرحوا الارض حالاً ولما ان يغتصبوا بجد السيف قطعة من البلاد او ان يقعوا
في تيهور كانوا عاجزين عن الخروج منه .

...

على هذه الصورة نُمثل امامي مسألة الجنسية . فهي كالفصل الخامس الأخير

لقصص تاريخية محزنة بدأ بعضها من زمن هجرة الشعوب واكثرها بعد ذلك بكثير .
وقد طالت فترة ما بين الفصول لكنها لن تدوم ، فالسثار ارفع والكارثة على وشك
الوقوع ، انها ستكون شديدة قاسية وكذا تكون مقادير كل كائن حي اذ الحياة جهاد
لارحمة فيه . وليست هذه مسألة حقوق بل مسألة قوة في اعلى واعظم معانيها . وما
من حق يضطر الكائن الحي للتنازل عن الاسباب الضرورية لحياته ، ولا يمكن ذلك
الا بالقوة ، والقوة تسبب الدفاع والممانعة . وهل يطلب من الاسد ان يبرز صكاً يخوله
الحق في اقتراس الحمل . الاسد يقتصب الحمل اضطراراً وهذا مبدأ حقه في اقتراسه .
لاجرم ان للحمل الحق بقتل الاسد ان قدر عليه وحيثما تكون الحياة او ما يماثلها
معرضة للخطر يتساوى الحق بالقوة وهذا ظاهر حتى ان الشرائع البشرية جميعها تتبع
للفرد الدفاع عن نفسه أي انها تسمح له في بعض الاحوال ان يستعمل القوة في
الدفاع عن حقه . اوليست الحرب حالة من حالات الدفاع عن النفس بين الشعوب
لابين الافراد ؟ اذا رأى الشعب في بعض الامور ما هو ضروري له مد يده لامتلاكه
وحقه في هذا الشيء هو عين الحق الذي للأسد في اقتراس الحمل . فاذا شاء شعب
آخر منعه فيجب عليه اذن أن يعارضه بالقوة بنفس الحق الذي له ايضاً . ولا وجه
للتغلب بالتشكي مادام له الحق باعادة الكرة مرة أخرى . فان قهر نهائياً واضاع الامل
بالقوة في المستقبل وجب عليه ان يـ عن اللقضاء قائلاً : « خلفت حملاً فيجب ان
أعيش عيش الحمل ، حبذا لو كنت أسداً ! ولكن من الحق مشاكسة الفطرة لانها لم
تخلقني اسداً »

ان الشعب الذي يراد نزع لسانه لهو في حال الدفاع الشرعي ذو حق في المناضلة
عن اثنين ملك لديه . لكنه اذا لم يك قادراً على الدفاع فلا حق له بالتذمر والشكوى .
كما ان للشعب المتسلط ان لا يدع الضعف يتطرق الى لغته بوجود لغة اخرى في البلاد
وان لا يسمح بما من شأنه ان يقلق راحته في المستقبل . فان لم يقدر على حفظ حقه بالقوة
فعليه ان يعترف للشعب الآخر بتساوي الحقوق فيما بينهما وان يهبط عن تلك المنزلة
العليا منزلة الشعب المتحكم ، وان كان تحكمه شرطاً من شروط حياته فاحكم عليه بالهلاك .
واني لا أبقى هذا الحكم بدون تحيز على جميع الجنسيات المتنازعة كالالمان في هنغاريا
و بوهيميا وكالدايمركيين في مقاطعة شليسويك الشمالية وكالبولونيين في بوزن
وكالرومانيين في ترانسلفانيا وكالايطاليين في طسارانت . للخمسة الملايين من المجر في

هنگاريا الحق بصيغ الاحد عشر مليوناً من الشعوب الاخرى بصيغة المجرية فهم يتون الفتح الذي بدي به سنة ٨٨٤ من عهد (ارباد^(١)) ولكن للألمانين والسلافيين والرومانيين في هنگاريا نفس الحق في الدفاع عن انفسهم وان قووا يوماً على المجر وتزعوا عنهم جنسيتهم فليس هو لاء الا ان قبلوا ماخباً لم القدر الذي قادهم منذ ان عام الى النزول على بلاد اجنبية كادوا يحسرون فيها حياتهم . وللتشيك ايضا الحق بتأليف دولة مستقلة لا يتولون فيها احداً من الالمان وهكذا يستعيدون عهد الوقاع الدامية التي حدثت في مارش وفي الجبال البيضاء والالمان ايضا الحق بان يقاوموا بقوى اشد من اقوى التشيك ويصلوهم حرباً ثالثة تبرهن لهم انهم غير اقوياء على فتح بلاد خلوها منذ اثني عشر قرناً دون مقاومة .

...

لابد لاوربا ان ترى مرجل الجنسية يتفجر انفجاراً عظيماً هائلاً عندما يأتي دور تصفية الحساب . والفرق المتباعدة من كل شعب اما ان ترجع الى اصلها فتختلف حوله واما ان تستصرخه وتستهجده فتتصر بمعنوته على الشعوب التي تستبد بها . ومصير الشعوب الصغيرة التي اكتسحت بلاداً بالاشترك مع غيرها الى الزوال ان لم يكن لها من قومها عضد قوي يساعد على الثبات امام جيرانها الاقوياء . هناك لا تثبت الا الامم الكبرى ، ومن الامم الصغرى من تستطيع تأسيس دولة مستقلة بطرد او محو سائر العناصر الاجنبية التي تعيش بينها

وقد لا يمضي القرن العشرون قبل ان يشاهد ختام هذا المشهد التاريخي . بل ستري اوربا منذ الآن الى ذلك اليوم العصيب شروراً كثيرة ودماء مهدورة ومظالم عديدة وقساوة بربرية فستمحى شعوب وتسحق اقوام بدون رحمة ولا شفقة . وتبدو امام هذا التسفل البشري مظاهر شجاعة عالية هنا ثم اذم انزال يخضعون اديباً بدون مقاومة وهناك ابطال يشربون كأس الردى ممزوجة بالعز والشرف . وبعد كل ذلك ننتفع الامم الباقية بحقوقها الوطنية لا يرون فيها غير انفسهم . انها لنظرات مرعبة تترادى لنا لكنها قلما تخيف من استمد لتعمل قسوة ناموس الحياة العام : الحياة جهاد وقوة الحياة تكسب الحق فيها . وهذا الناموس صار على الشعوب في الافلاك كما هو صار على

(١) (ارباد) فاتح مجري توفي عام ٩٠٧ وهو رأس السلالة الملكية المسماة باسمه

التي انقرضت عام (١٣٠١)

المكروبات في مياه المستنقعات وهو جار أيضاً على الشعوب بدمر مقاديرها ادارةً لا تقوى على تغييرها شريعة غاشية ولا سياسة قادرة ولا مصلحة ملكية ولا خبث انذال ولا تلاعب لؤماء

ولقد تدمع عين ذي العاطفة حينما يرى شعباً يجهل بنفسه . اما ذو العقل فيعترف بان هذا الشعب هلك لانه لم يكن ذا قوة تكفيه للحياة ثم يضع هذا الشعب بين الاشكال البيولوجية (الحيوية) المغلوبة على امرها والتي مر عليها نشوء الكون .



نقد كتاب البنين

لا تتجاوز الكتب العلمية التي عربت في سوريّة منذ انتشار حرية المطبوعات عدد الانامل وكتاب البنين تأليف بول دومر من رجال السياسة الفرنسية هو من انفع الكتب ولذلك احسن عبد الغني افندي الريسي احد صاحبي جريدة المفيد في نقله الى هذا اللسان العربي وقد قدمه الى رفيق بك العظم فقدم له صديقنا هذا مقدمة في علم الاخلاق عند العرب وذكر بعض ما كتب فيه ثم لاؤثم وعرب فيه حديثاً الى لغتهم اجاد فيها كل الاجادة

والكتاب تأليف رجل جرب الامور فقال عن تجربة اكثر مما يقول عن علم نظري قسمه الى أبواب الباب الاول في الارادة والملكمة والواجب والاقدام والسعي والعمل وتهذيب الاخلاق والعدل والاخاء والحرية والتسامح وتهذيب العقل وتأثير الاخلاق في الجسم الباب الثاني في ذوي القربى والارحام والمحبة والوداد والزواج والبنين والسعادة والثراء ونقص الانفس الباب الثالث في الديموقراطية والدستور والواجبات الوطنية والمساواة في الحقوق وأنواع الحرية والتعليم والتعاون وتدارك البؤس الباب الرابع في حب الوطن والسفستائيين وهذه الامة وقوى الوطن والحرب والجنس البشري

ولا نعلم الطريقة التي جرى عليها المعرب لان الكتاب الاصلي غير موجود لدينا لتقابل بين الاصل والفرع ولم نره منذ عربنا عنه يوم صدوره مقالة في السنة الاولى للمفبش على سبيل النعرج ثم رأينا مجلة أنيس الجليل في الاسكندرية قد عربته